

أسرار الحروف في القرآن الكريم

الأستاذة: زينب عقبان
كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

القرآن الكريم كلمات انضم بعضها إلى بعض وجعل جمعت فشكلت آيات، وآيات جمعت في سور، وسور جمعت في مصحف شريف واحد¹.

ولكل منها دلالات لغوية، وصوتية، واجتماعية، وغيرها من سائر الدلالات، ونركز في هذا المقال على بعض الدلالات الصوتية في القرآن الكريم، إذ حظيت ألفاظ القرآن الكريم المبجلة بال العناية والتشريف لما تحمله من إحياءات ودلالات وأصداء وتأثيرات متنوعة.

وإذا كنا نقرأ القرآن الكريم فتصادفنا الألفاظ الكثيرة الشديدة الإحياء، والعميقة الدلالة والبعيدة الأصداء، فإننا لا نستطيع تحمل شوق تأثيراتها وفهم كنهها، وترصد المجالات والمفاهيم والمعاني التي تحوم حولها، والظلال التي تشع منها، حتى نحط رحالنا سالمين غانمين.

ومن بين الدلالات التي ذكرها العلماء:

دلالة الحروف في القرآن الكريم:

1- حرف الفاء ودلالته في القرآن الكريم:

لهذا الحرف القرآني صدى ودلالة تقفز بالمشاعر قفزا، وتنبه الخاطر تنبيهها واضحا لما جاء عليه من التتالي والتتابع البين والجلي في آيات الذكر ويمكن لنا أن نستشف ونستخلص ذلك من خلال الأسئلة الآتية:

قال عز وجل: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا²﴾

نلاحظ التعاقب الموجود الذي يصك السمع في دلالة وقوع الأمر دون حائل وبلا فاصل تعبيرا عن الخسران النهائي، والحرمان المتواصل دفعة واحدة، وهنا تلتقي الدلالة الاجتماعية بما يستفاد من معنى لغوي³.

- يؤكد هذا التوالي بإلقاء العاطفة تواليا في النفس يحدثه سرعة الإيقاع، وعدم الانتظار، مما يوحي للسمع والذهن كأنه كتلة واحدة انصهرت موادها كقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا ۖ ٤ ۖ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۖ﴾.

- وفي مثال سورة الكهف ضرب الله عز وجل مثلاً للدين وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنين في الفناء والزوال، والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافيا غزيرا، وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثره بماء نزل من السماء فخرج حتى صار النبات متكسرا من اليبس متفتتا تتسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال.⁵

- فالفاء إذا تحمل في طياتها معنى سرعة فناء الحياة الدنيا.

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن الكريم في ورود هذه الفاء سواء أكان الحرف عاطفا أم رابطا فإن له ثقلا كبيرا في الوقع الموسيقي على الأذن.

- قال عز وجل: ﴿فَأَصَابَهُ ۖ ٦ ۖ وَأَبْلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ﴾.

- قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِيبْهَا ۖ ٧ ۖ وَأَبْلٌ فَطُلَّ ۖ﴾.

- وهناك آية ذكرها العلماء لكثرة دلالاتها وعجيب تأليفها وكثرة جرسها، ونذكر في هذا الموضع حروف عطفها والمتمثلة في كثرة تتابع فاءاتها، وجميل نسقها الذي أحدثته هذه الفاءات المعجزات، وهي الآية 29 من سورة الفتح، قال عز وجل: ﴿فَازَرَهُ ۖ ٨ ۖ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ ۖ ٨ ۖ﴾.

- فالتوالي هنا زيادة على جرسه السمعي يوحي إلى النفس نقطة الانتهاء من حقيقة الأمر حتى عاد واقعا دون شك، مقترنا بالدلالة الإيمانية في كشف تماسك هذه الجماعة وترباطها، وكذا الزرع في شدة أسره، وقوة تشابكه.⁹

في مثال آخر تظهر قوة الفاء في سورة الشمس في قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ ١٣ ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۖ ١٤ ۖ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ ١٥ ۖ﴾¹⁰ رواية حفص.

تتوالى هذه الفاءات في هذه المواضع من الآيات القرآنية في سورة الشمس، لتبين سرعة وقوع الأحداث وكيفية تتابعها، ونلاحظ في قراءة حفص وجود الفاء في الآية 15، وفي قراءة ورش وجود الواو.

- نشهد مع الآية العظيمة توالي الأحداث الآتية: التكذيب فالعقر فالدمدمة لوقعها الخاص وهي من الألفاظ القرآنية ذات الدلالة المؤثرة.

دمدم: أطبق عليهم العذاب بذنبهم فأهلكهم، قال الفراء، وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب، وترديده، ويقال: دمدمت على الشيء: أطبقت عليه، وفي الصحاح، ودمدمت الشيء، إذا ألزقته بالأرض، ودمدم الله عليهم، أي أهلكهم، ويقال: والدمدمة: الكلام الذي يزعم الرجل. وفي القاموس: ودمدم الأرض: سواها، وفلانا عذبه عذابا تاما، والقوم: أهلكهم: كدمدم، ودمدم عليهم¹¹.

من الدلالات الصوتية وأسرار الفاءات القرآنية:

- نكتشف فاءات سورة المدثر في الآيات الأولى الخمس في قوله تعالى: (يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر).

- اختلف العلماء في المحل الإعرابي للفاء وقدروها تقديرات عدة لتعيين وضبط مكانه في النظم، ووقع الخلاف بين الزيادة والأصالة وهي تحوي سرا من أسرار البلاغة.

- وقد ذهب الزمخشري في تفسيره الكشاف من أنها جواب شرط مقدر كأنه قيل: "وما كان فلا تدع تكبيره، وما كان فلا تدع طهارة ثيابك، وما كان فلا تدع هجر الرجز، فهذه الفاءات المتعاقبة أحدثت جرسا خاصا في بناء الكلام، فالآيات تبدأ بنداء قوي مثير للانتباه استعمل فيه "يا" التي هي للبعيد، وتكرر فيه التنبيه عن طريق "ها" فالمقام مقام تنبيه قوي، فليس الوقت وقت تدثر ونوم.

- إن هناك أمورا جلية تستدعي التنبيه واليقظة وهي الإنذار والتبليغ مع ما يصحب ذلك من أوامر هامة، هي توجيهه إلى تكبير ربه وحده¹².

- ربطت الفاءات الكلام ربطا قويا مثلما يربط الجواب بالشرط، فجاء التعاقب على نحو معجز، تظهر علاماته في الجرس الصوتي، وقصر الآيات واتساق الفواصل المنتهية بحرف الراء الذي يحمل صفة من الصفات المهمة وهي صفة التكرار.

وليس الفاء في قوله سبحانه ﴿هَذَا قَلِيدُ قُوهِ حَمِيمٍ وَعَسَاقُ﴾¹³.

بزيادة- بل هي آية ضمنت ثلاث جمل قصيرة، يوحى قصرها الخاطف بالرهبة في النفس والخوف، فالجملة الأولى مبتدؤها مذكور حذف خبره، فكأنه قال: هذا حق ثابت لا مراة فيه، وكأنه يشير إلى تقدم من قوله ﴿هَذَا وَارَكُ لِلطَّالِعِينَ لَشَرِّ مَنَاقِبٍ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسْأَلُونَ لِمُحَادِّثِ﴾.

ثم فرع على ذلك العذاب الذي أعد لهم قائلًا: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ذاكرا ضميرا يبعث في النفس ترقب تفسيره، ففسره بأن ما سيدوقونه حميم يحرق بحرّه، وغساق يقتل ببرده ولم يذكر العذاب الذي أعد لهم¹⁴.

وخرجه ابن هشام على أن خبر هذا حميم وغساق، لا الجملة الطليية، وعليه فتأويل الآية: (هذا حميم وغساق، فليذوقوه) وإنما أسرع بالجملة الطليية تهديدا لهم، وتشفيا منهم¹⁵.

2- حرف الواو: بعض دلالات حرف الواو في القرآن الكريم:

- للواو دورها أيضا في التعبير القرآني فهي حرف عطف، ويعد من الروابط التي تجمع الأحداث وتضمها بعضها إلى بعض في تناسق عجيب¹⁶.

- نذكر مفتتح سورة الانشقاق حيث يعرض القرآن الكريم صورا من التغيرات الكونية للسماء والأرض وانقيادهما التام لله تعالى في قوله جلت قدرته: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ ۖ﴾¹⁷.

لقد ورد العطف في الآيات القرآنية لغرض بلاغي يتناسب ويتلاءم وبلاغة العطف في القرآن الكريم. الواو في ﴿وَأَذْنَتْ﴾ وكذلك ﴿وَأَلْقَتْ﴾ أصلية عاطفة، والجواب محذوف، وهذا يدعمه الاقتضاء النحوي بوجوه المتعددة القوية... كما يؤيده السماع، فقد ذكر الفراء أنه لم يسمع جوابا بـ "الواو" في "إذا" مبتدأ- أي ابتدئ بها وليس قبلها شيء- وكذا يدعمه التذوق البلاغي لسر حذف الجواب¹⁸.

نلاحظ هذا الدقة المتناهية في التعبير القرآني في استعمال بعض الأحرف، حيث جاء في العجائب للكرمانى: قيل كيف جاء ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أربع مرات بغير "واو".

1- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ۖ﴾¹⁹.

2- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ﴾²⁰.

3- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَّاءِ ۖ﴾²¹.

4- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ ۖ﴾²².

ثم جاءت ثلاث مرات بالواو:

1- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ﴾²³.

2- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾²⁴.

3- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾²⁵.

قلنا لأن سؤالهم عن الحوادث الأولى وقع متفرقا، وعن الحوادث الآخر وقع في وقت واحد، فجاء دلالة على ذلك²⁶.

- توضع الحروف في الجملة العربية ليؤدي مهمة خاصة، وتزداد خصوصية ودقة هذه المهمة في العبارة القرآنية بشكل جلي.

- يقول عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾²⁷.

- وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾²⁸.

- علل الزمخشري²⁹ ذلك: (وقيل حتى إذا جاؤوها، جاؤوها وفتحت أبوابها، أي مع فتح أبوابها. وقيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة، فمقدم فتحها بدليل قوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾، فلذلك جاء بالواو كأنه قيل حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها.

- ويؤيد هذا ما ذهب إليه عباس³⁰ من أن " فتحت أبوابها أي: طرقتها لهم، ولم تكن قبل ذلك مفتوحة".

و" فتحت أبوابها أي وقد كانت مفتوحة قبل ذلك" تفسير ابن عباس.

- تمتاز الحروف العربية بآثرها الكبير في التنسيق والانسجام الوارد في العبارة القرآنية، فالدقة في الآية الأولى تشعر النفس بحكم الإحياء - بانغلاق وانقباض في النفس، وفي الثانية بانسراح النفس وابتهاجها³¹.

رأي في الحروف الزائدة في القرآن:

- إن لكل حرف دلالة فنية تدخل في عناصر الصورة، أو أجزاء الجملة، ففي قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾³².

يسوق رأي ابن هشام في (معنى اللبيب) وأنه لم يرتض زيادة (إذ) ورأي صاحب الكشف الذي يذهب إلى أن (إذ) منصوبة بإضمار الذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا، وعليه فليست زائدة.

والربط بين الآيتين، هذه التي ذكرناها، والتي قبلها، وهي قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾³³

- يدل على أن الآيتين سيقتا في الخلق والتغيير والتبديل، فالخلق منصب على الأرض وما فيها، والسماء، وما فوقها، والتغيير والتبديل خاص باستخلاف الله آدم في الأرض³⁴.

فلما فرغت الآية الأولى من تقرير وتوكيد خلق الله للأرض، ثم استوائه إلى السماء وتسويتها سبع سموات، خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حساب حاجات أهلها ومتطلباتهم.

لما فرغت الآية من تقرير ذلك كله، برز لون جديد من القدرة الإلهية، في كلمة (إذ) التي توحى بهذه المعاني والتي تسقط في روع القارئ، بأن يقف هنا قليلا، والتي تبعث في نفس محمد ﷺ أن يكون على وعي تام بأسرار الخلق وأسرار الخليقة التي انكشف بعضها أمامه بصنع ربه.

فكلمة (إذ) ضرورية في التركيب، لاشتمالها على دلالات لا تفهم بدونها، وسواء كانت منصوبة بالذكر محذوفة، أو بقالوا: في الآية فإنها تبعث في النفس كل هذه التأملات³⁵.

- وكذلك أسلوب القرآن لا يسير على وتيرة واحدة بل يقف بين الحين والحين في الأخبار أو القصص وقفات في غاية في الفنية، وتدعو إلى التأمل العميق، ولعلك تتأكد من ذلك بنفسك، لو قرأت هذه الآية التي تذكر استخلاف الله آدم في الأرض، ورد الملائكة عليه، والآية التي تنتهي لم تذكر تعليم آدم أسماء المسميات، وعجز الملائكة عنها، والآية التي تنتهي بعلم آدم بالأسماء دون الملائكة فانظر بعد ذلك، فستجد القرآن يذكر (إذ) مرة ثانية في مطلع هذه الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾³⁶.

والتذكرة واستطاع حكمة ما وراء الخلق، وما وراء الخليقة فهي جزء ضروري في تركيب الآية، لها دلالتها التي تدخل في صميم فن القول، ويجيء تاليا لقصة آدم في صورة بقرة بني إسرائيل³⁷.

ف نجد قصة بني إسرائيل تنصدر بكلمة (اذكروا) بعد النداء مباشرة، ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾³⁸.

وتجيء الثانية في قوله عز وجل: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾³⁹.

وتجيء بعد ذلك كلمة (إذ) وحدها مجردة من كلمة (اذكروا) خمس عشرة مرة، في مطلع هذه الآيات:

﴿وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾⁴⁰.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾⁴¹.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾⁴².

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾⁴³.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾⁴⁴.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾⁴⁵.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾⁴⁶.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾⁴⁷.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾⁴⁸.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾⁴⁹.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾⁵⁰.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُكْهُ ثُمَّ فِيهَا﴾⁵¹.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾⁵².

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ)⁵³.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾⁵⁴.

ثم تتولى قصة إبراهيم بعد ذلك، أو طرف من قصة إبراهيم، وتذكر كلمة (إذ) خمس مرات تجيء في مطلع هذه الآيات:⁵⁵

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ البقرة 124

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة 125

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إبراهيم 35

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ البقرة 127

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة 131

فهل يتصور عاقل بعد ذلك أن الكلمة (إذ) زائدة في كل هذه الحالات؟ أو أن القرآن ذكر عاملها قليلا وحذفه كثيرا تمشيا مع طريقته المعجزة في الذكر والحذف والإيحاء؟

- كما يمكن ذكر استعمال (إذا) في بعض الآيات القرآنية ومثال ذلك في قوله عز وجل ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ النازعات.

نلاحظ دلالة إذا في الآية القرآنية الدالة على المفاجأة فيحدث ما أنكره بسرعة فائقة.

(إنما تفيد القصر والتخصيص، أي زجرة واحدة، وليست أكثر من ذلك، وليست صعبة ولا مستعصية على قدرة الله سبحانه، والزجرة هي الصيحة التي يحدث بموجبها إحياء الموتى في قبورهم... والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، وسميت ساهرة لأن سالكها لا ينام خوفا منها، ويطير النوم من أجفانه)⁵⁶.

- نبين في هذا المضمار كيفية توالي استعمال الفاء وإذا ودلالتهما في سورة النازعات في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾⁵⁷.

- الفاء الفصيحة للتفريع ما يفيد قولهم ﴿يَقُولُونَ أَهَآءَ نَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ ﴿١٠﴾ أَهَآءَ كُنَّا عِظَمًا تُخْرَجُ﴾ من إحالتهم الحياء بعد البلى والفاء.

فتقرير الكلام: لا عجب في ذلك فما هي إلا زجرة واحدة فإذا أنتم حاضرون في الحشر.

وفاء ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ للتفريع على جملة "إنما هي زجرة واحدة" و(إذا) للمفاجأة، أي الحصول دون تأخير فحصل تأكيد معنى التفريع الذي أفادته الفاء وذلك يفيد عدم ترتيب الزجرة والحصول في الساهرة⁵⁸.

والإتيان بإذا الفجائية للدلالة على سرعة حضورهم بهذا المكان عقب البعث، وعطفها بالفاء لتحقيق ذلك المعنى الذي أفادته (إذا) لأن الجمع بين المفاجأة والتفريع أشد ما يعبر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ.

والمعنى: أن الله يأمر بأمرك التكوين بخلق أجساد تحل فيها الأرواح التي كانت في الدنيا فتحصر في موقف الحشر للحساب بسرعة⁵⁹.

يعرض القرآن الكريم صوراً من المتغيرات الكونية للسماء والأرض وجلال خلقه وعظيم سلطانه في آيات من الذكر الحكيم في مفتتح سورة الانشقاق.

قال عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ⑥ إِلَى رَبِّكَ كَذِبًا ⑦ فَمُلْقِيهِ ⑧ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑨ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑩﴾⁶⁰

حصل خلاف بين العلماء بزيادة واو ﴿وَأَذْنَتْ﴾ وذلك لتضارب الآراء حول جواب إذا المتكررة.

فهناك من قال بأصالة "الواو" على أنها عاطفة وهم كثرة واعتمدوا على وجوه مختلفة في جواب (إذا).

من بينها ما ذكره ابن جني: (من أن جوابها محذوف تقديره: عرف كل واحد ما صار إليه من ثواب أو عقاب)⁶¹.

وهذا ما بينه الطبري (في جامع البيان في كتابه معاني القرآن) وهو امتداد لرأي الفراء: في كتابه معاني القرآن ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ⑥ إِلَى رَبِّكَ كَذِبًا ⑦ فَمُلْقِيهِ ⑧ وَالآيَاتُ بَعْدَهَا ⑨﴾⁶².

- إن نظرة متأنية لقوام الآيات يعطينا إشعاعاً من ضوء يدرك به إيداع تناسق هذا النص القرآني موازناً بما قبله في سورتي التكوير والانفطار، ففي التكوير بدئت السورة باثني عشر شرطاً متعاطفاً، وليس بينها جمل متعاطفة أخرى داخلية في حيز أحد الشروط، ثم يأتي الجواب: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑩﴾ تفصيلاً لتلك الأعمال.

وفي الانشقاق بدئت السورة بشرط وجملة معطوفة عليه، ثم شرط آخر معطوف على الأول، يعقبه جملتان متعاطفتان داخلتان في حيزه، والجواب محذوف في الشرطين)⁶³.

- تبيننا هذه الآيات إلى حقيقة الحياة، لتتوجه النفس الإنسانية إلى ربها راضية مرضية يتخيلها الجواب ثواباً أو عقاباً، ولنلمح دقة النظم القرآني في إثارة (إذا) الشرطية، وما ترشد إليه من تحقق وقوع تلك المتغيرات، حيث ترد العبارة بالماضي لتؤكد كينونتها، وإن كانت أفعالا مستقبلية (انشقت... أذنت...) وفي تكرار "إذا" ضرب من التوكيد الذي يقتضيه المقام⁶⁴.

وينبئ التعبير بالمعلوم المطاوع (انشقت) عن التلقائية والطواعية، وعنف الفعل في الوقت ذاته، وامتداد قوته وتأثيره.

وقد دفع الكرمانى ما يتوهم من تكرار في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِرَبِّهَا وَحْفَتٌ﴾، حين ذكر مرتين: فبين أن الأول متصل بالسماء، والثاني متصل بالأرض.

3- تبيان أسرار (إذا) في سورة التكويد:

قال عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْآلَمُودَةُ سُيِّتَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّعُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝٦٥﴾.

- الانفتاح ب (إذا) افتتاح مشوق لأن (إذا) ظرف يستدعي متعلقا، ولأنه شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال التمكن، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة (إذا).

- وتعد الجملة التي أضيف إليها اثنتا عشرة مرة، لإعادة كلمة (إذا) بعد واو العطف في هذه الجملة المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاء قصد التهويل، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير.

وقد دخلت إذا هنا على اسم وليس على فعل، وهذا الأسلوب لقصد الاهتمام بذكر ما أسند إليها⁶⁶.

- "وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده، الكون المنسق الجميل، الموزون الحركة... المتين الصنعة... أن هذا الكون سينفطر عقد نظامه، وتتأثر أجزأؤه... وينتهي إلى أجله المقدر، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق...

وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب، كي تتفصل من هذه المظاهر الزائلة- مهما بدت لها ثابتة- وتتصل بالحقيقة الباقية... حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول⁶⁷

4- تبيان أسرار "الباء" في القرآن الكريم:

قال عز وجل: ﴿أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا نُوسِئُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنِّ جَلِّ الْوَرِيدِ ۝٦٨﴾.

هذا مقام يؤكد البعث ببراهين عديدة من إثبات صفات الله وآثار صفاته.

- اختلف العلماء حول "الباء" المتصلة بالضمير هل زائدة أم أصلية، وفي القول في أصلاتها لا بد من ذكر دورها، وحتى نكشف اللثام عن دور الباء العزيزة في هذا المقام، نذكر آية أخرى من آيات الذكر الحكيم، وقبل ذلك نشير إلى أن مادة الوسوسة قد تكررت أربع مرات في القرآن الكريم، أحدها الآية التي ذكرناها التي تعدى فيها بـ "الباب" أما الثلاث الأخر فقد تعدى الفعل فيها مرة بـ (في) متمثلاً في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾⁶⁹، وأخرى بـ (اللام) في قوله تعالى: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾⁷⁰

وثالثة بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾⁷¹.

- والملاحظ أنه لما كانت الوسوسة من الشيطان عدي بغير "الباء" ولما كان من الإنسان عدي الفعل بها. وعلى هذا فقد أبانت "الباء" أبلغ إبانة عن شدة التصاق هذه الوسواس بصاحبها، وأنها كائنة في حضرته، وأنها تسد عليه منافذ قلبه دون سواها ولذلك ناسب تقديم الجار والمجرور (به) على الفاعل (نفسه)⁷².

- وقد كشفت الآية أن علم الله محيط بهذه الوسوسة الملتصقة بنفس الإنسان والتي تخالطه ولا تكاد تبين، والله سبحانه وتعالى علام الغيوب، وكاشف الدروب، ومطلع على القلوب.

تنشي الآيات على سليمان عليه السلام بأنه أواب لربه، ونذكر قصته مع الخيل حين عرضت عليه، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجَائِدُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رَدُّهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣).

وقع خلاف بين العلماء في الباء ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾ والقائلون بالأصالة يجنحون إلى أن المسح هو مسح باليد استحساناً وتكريماً لها.

- هناك من ذكر آية المسح في قوله عز وجل: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾⁷⁴ ليستدل بها على أن المسح ليس للقطع، ونفسر الآية السابقة على أن المسح للمسوق والأعناق تشريف لها، وامتحان ليعلم سليمان هل فيها من مرض، وإظهار لمباشرته أكثر الأمور بنفسه في شؤون السياسة والمملك⁷⁵.

أما الآية الأخرى المذكور فيها فعل المسح فهي قوله عز وجل: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

ذكرت في هذه الباء ثلاثة آراء هي: الإلصاق، والتبعيض، والزيادة على أنه أسلوب عربي.

- نستخلص المعنى الأصلي للباء والمتمثل في معنى الإلصاق الذي هو المعنى الأصلي لـ "الباء"، وهذا توافق مشير، وهو أدل على هذا الحب الشديد والانشقاق من النبي سليمان عليه السلام على تلك الخيول الجميلة (في الآية الأولى السابقة الذكر) التي تؤدي دورا بالغا في سبيل الله⁷⁶.

- جاءت "الباء" وسط هذا السياق المفعم بروح التوجس والحذر والخوف، وما يطوي من شعور الأمومة الغلاب- معللة لهذا الفعل الدال على شدة أسفها إن أذيع أمرها. وقد أعان حذف المفعول على تصوير هذه المشاعر "المتزاحمة" المتباينة المتداخلة الثائرة في قلب الأم الرؤوف.

نذكر في هذا المقام أول ما أوحى للرسول صلى الله عليه وسلم في مقام التبليغ والتوجيه الإلهي.

قال عز وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾⁷⁷.

- قال ابن عاشور أن تكون باء المصاحبة على أن يكون المجرور في موضع الحال إليك مصاحبا قراءتك بين ضمير (اقرأ) الثاني مقدما على عامله للاختصاص، أي اقرأ ما سيوحي إليك مصاحبا قراءتك اسم ربك⁷⁸.

- يظهر جليا قوة هذه الباء في دلالتها على الاستعانة برب السموات والأرض رب العالمين الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم (لقد كان هذا الوحي الإلهي يوجه النبي ﷺ إلى القراءة أولى خطوات طريق الدعوة إلى الله تعالى، وهي ليست مطلق قراءة، وإنما قراءة تستصحب وتلبس وتستحضر اسم الله الأعظم، فهي إذا قراءة تطمئن بها هذه النفس الهالعة الفزعة القالعة في ذلك الركن القصي من الغار اطمئنانا وتفزع به إلى الله تعالى، فيقوى القلب وتركن النفس وتتغمر الروح بفيض اليقين، فلا يداخلها ولا يصاحبها ولا يلبسها إلا اسمه العظيم⁷⁹.

- نجد أيضا في موقف آخر وهو موقف الإنفاق في سبيل الله جاءت "الباء" في مقام الحض على الإنفاق في سبيل الله، وأن تارك ذلك هالك، كما في قوله تعالى، ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾⁸⁰.

- "وفي الأمر بالإنفاق استثارة للقلوب، ودفع لها نحو الخير بالتقرب من الله تعالى وطاعته من خلال ماله... وقوله ﴿وَلَا تُلْقُوا...﴾ نهي بليغ عن ترك النفقة في سبيله، من خلال النهي عن التسبب في إتلاف النفس بأي وجه من الوجوه، وفي التعبير القرآني من النهي بالإلقاء باليد دلالة على معنى العجز والضعف والاستسلام فهو فعل العاجز، وفي ذلك شحن لقوى المسلمين نحو الخير والفوز⁸¹.

أما فيما يخص الباء فقليل تحمل معنى السببية ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

- إما على حذف المفعول، والتقدير: (ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم) ذكر ذلك الراغب (المفردات: 70/ ونقله الزمخشري مضعفاً (الكشاف: 1: 119، والرازي، وأبو حيان (التفسير الكبير 5: 136. (وتفسير البحر المحيط: 2: 71) ونسبه المرادي إلى المبرد (الجنى الداني، 52) ونقل الزركشي عن الجمهور أنها لا تزداد، وحذف المفعول اختصاراً، ونقل في موضع آخر أن المعنى: لا تلقوا أنفسكم بسبب أيديكم (جامع البيان، 2، 205).

- فالإلقاء إلى التهلكة في الإنفاق لا يكون إلا بسبب من اليد، إذ هي أدواته، إن المتتبع لفعل الإلقاء في القرآن الكريم نجده في الآية السابقة وفي قوله عز وجل: ﴿تَلْقَوْنَ آلَهُنَّ بِالْمَوَدَّةِ﴾⁸².

ولكن الملاحظ أننا لا نجد هذه الباء في قوله مثلاً: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾⁸³.

- إن هناك في الآية الربانية تناسقاً في المشاهد المعجزة أو تناسقاً صوتياً لا نجده لو جاءت العبارة القرآنية، (وألقى في الأرض برواس)، وهو وجه لا يتأتى في كلام فصحاء البشر، فكيف يتصور تأتية في كلام الله المعجز⁸⁴.

مثال آخر الترغيب في الإيمان:

- من أسرار الباء الربانية ورودها في موقف من مواقف الإيمان بالله والترغيب فيه، ونلاحظ هنا في الآية القرآنية الجليلة كيفية مجيء حروف تنبئ عن دلالات لا نجدها في غيرها، وقال عز وجل: ﴿إِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁸⁵.

- تدل الباء على معنى الملازمة، أي ملازمة الإيمان بالمؤمنين، مثل ملازمة المؤمنين به، وهكذا فالتصاق الإيمان بصاحبه أبعث على الخير وأهدى للصالح وأدعى للفلاح وقوله: ﴿إِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ وهو حث على صفة الإيمان المماثل لإيمان المؤمنين حقاً بهذه النبرة المرغوبة وفي جملة الشرط والذي ربط الاهتداء بالإيمان، وجاءت إن لعدم توقع إيمان الكافرين، وهو من جانب آخر حث لهم على الإيمان وحفز لهم عليه...⁸⁶

نكشف سرا من أسرار الباء الربانية في الآية القرآنية الآتية:

في مقام المجازاة تشريعا: (مقام الحض على المجازاة بالعدل حال الاعتداء، وعدم الظلم حتى مع المشركين قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾⁸⁷.

- إن المتمعن في الآية الكريمة يتملكه إحساس مفعم بروح العدل المتمثل في الحض على مواجهة أعداء الله الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، فجعلت الاعتداء الثاني مقيدا بالمثل وأنت "الباء" لتحدث فضل معنى لن تجده بدونها، إذ هي للسبب، فالاعتداء يكون بسبب مماثل للاعتداء.

وسمي الاعتداء اعتداء تزهيدا للنفوس في طلبه.

- ولا يغفل ما في حرف (الفاء) من بيان لسرعة المجازاة وترتيبها فلا تسامح ولا عفو في استيفاء الحدود بل نفرة رادعة للباطل، ونصرة الله وإعزاز للمسلمين.

قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَحِبُّوا إِلَهُتَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁸⁸.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَحِبُّوا النَّارَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁸⁹.

- جاء الحديث في الآيات الكريمة عن أصالة الباء الموجودة في قوله عز وجل:

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ على أساس ترجيح أن الباء ما بعدها هو الخبر، والتقدير: جزاء سيئة كائن بمثلها، وقد ذكره الفراء على أن (جزاء) مرفوع بـ "الباء" ونقله الطبري، وابن جني والرازي والعكبري، وغيرهم⁹⁰.

- والشيء الملفت للانتباه في هذه الآيات الحكيمة الموازنة الدقيقة، بين المحسنين والمكسبين للسيئات، ويشكل نسق الآيتين على نمط بنائي خاص جرسا قويا عنيقا مؤثرا جدا، لا نجده إن لم يأت على هذا النحو، من حيث كثرة الحذف وما تحفل به الآيتان من ألوان التقابل البديع المذكورا ومفهوما.

4- تبيان أسرار "أن":

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ يوسف 96.

تحدث درّاز عن الدور الخطير الذي تلعبه "أن" في الأحداث فلما تفيد توقع الحدث، وترقبه الشوق إليه مما يدفع إلى سرعة حدوثه.

فتأتي في هذا السياق أن مفيدة للبطء والتراخي والتمهل، فنحس بالمجاذبة بين دلالة الآيتين (أن، لما) إثارة للنفس والوجدان، وتوهّجا في الأسلوب، وأن هذا التأخير قد أشعل الشوق إلى تحقيق الحدث واستنفذ طاقة النفس، فإذا ما وقع بعد ببطء، كان تخففا من عبء نفسي كبير.

إن "أن" هنا بما أفادته من تمهل وتراخي، اقتضته رحلة البشير، زادت عاطفة الحب أوارا، وأثارت كوامن يعقوب وأشجانه، وجعلت انتظاره نارا⁹¹.

وقد كان للكرماني والإسكافي رأي في ذلك فأثبتوا "أن" دالة على وقوع الجواب في الحال من غير تراخي، وهذا مؤداه إلى أن إلقاء القميص وقع مجيء البشير من غير بطء وتراخي، وكأن ارتداد البصر تكملة للجواب.

فـلـ "أن" دلالتان متباينتان:

- 1- إحداهم: تصور التراخي والبطء والتمهل.
 - 2- والأخرى: تصور السرعة والفورية في وقوع الجواب بدون تراخي ولا بطء.
- ولا يفسر مثل ذلك إلا في ضوء المشاعر المتزاحمة داخل القلب البشري وما يطويه من رغبات متباينة ورؤى متقابلة.

- رأي الرافعي في سر أن وما:

من الأئمة التي ذكرها مصطفى صادق الرافعي لإثبات دلالات الحروف ونذكر ما يلي:

قال عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَبِثُوا إِلَّا آبًا ذَرِيًّا﴾⁹².

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾⁹³.

فإن النحاة يقولون: إن "ما" في الآية الأولى و"أن" في الثانية زائدتان، أي في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم وقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير، لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته.

فإن المراد بالآية الأولى، تصوير لبن النبي ﷺ لقومه، وإن في ذلك رحمة من الله، فجاء هذا "المد" في "ما" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق⁹⁴.

نلاحظ بعد ذلك السر الخفي في حرف "الباء" في الآية الأولى والذي يدل دلالة قاطعة وقوية على قيمة الرحمة فيه (فيها رحمة من الله لنت لهم).

- اعتنى الرازي في التفسير الكبير عناية فائقة بتبيين الفرق بين أن الواردة قصة (لوط) في سورة العنكبوت الآية 33 ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُّضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ كَانَتْ مِنْكَ الْغَيْرُوتُ ٩٥﴾.

وعدم مجيء أن في قصة إبراهيم في ذات السورة (العنكبوت الآية 31) في قوله تعالى: (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين)⁹⁶.

فقال: "الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة (إنا مهلكو) وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا، ثم قالوا: إنا مهلكو، وأيضا فالتأتي واللبث بعد المجيء، ثم الإخبار بالأملاك حسن، فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به، والواقع هاهنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجنانية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير.

- إذ علم هذا فقولاه هاهنا ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يفيد الاتصال يعني: خاف حين المجيء، وفكرة الاتصال وعدمه هذه التي يستند عليها الرازي لعلها مقابل لفكرة التراخي وعدمه، وقد عقب الرازي بقولته المشهورة بأنه: "ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا"⁹⁷.

قصة موسى عليه السلام:

وردت "أن" في قصة موسى عليه السلام وقد استصرخه يهودي "غوي" مبين على عدوله ليقنتله، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ حَافِيًا يَرْقُبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨﴾
فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قُتِلَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ٩٨﴾.

أكد ابن الأثير على أصالة أن وإفادتها التراخي والبطء، ولم تكن مسارعة موسى عليه السلام إلى قتل الثاني كما كانت مسارعة إلى قتل الأول.

وتوحي العبارة القرآنية الجليلة بحدوث تريث ومهلة زمنية وصعوبة في الاسترسال في القراءة الصوتية للآية، وذلك لتوالي أن مرتين ويفصل بينهما الفعل أراد (أن أراد أن) فيها تريث في أن الأولى والثانية وهذه الدلالة الصوتية المبهرة العظيمة نستخلصها من الأداة أن، وكيفية تواجدها في السياق والمعنى الذي أضافته يعطي إشارات تنبيهية إلى الفكر البشري بحدوث أمر يتطلب مهلة، واستشعار توقف عن الفعل وكأن هناك جدار صد أو ممهلاً.

- وعبرت "أن" في الموضع الآخر وهو قول المصري: ﴿أُرِيدُ أَنْ تَمُوتَ﴾ وهو جواب لا يخلو من مخالطة وذكاء، وهو تعبير عن المشاعر المتباينة: استثارة للقتل، وحث عليه من الغوي، ويقظة موسى عليه السلام: ⁹⁹ فلا ريب أن زمنا طويلا يستغرق أمثال هذه المشاعر، وكأن "أن" حوت زمنا قضاه موسى في التفكير ليأتيه جواب المصري في سرعة شديدة (والله أعلم).

5- تبيان أسرار ثم:

" ثم حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة وفي كل منها خلاف على رأي ابن هشام ¹⁰⁰ .

- يصور لنا القرآن الكريم مشاهد كثيرة في سرعة حدوث الحركة مثلما نلاحظ هنا ببطء الحركة مع اكتشاف سر من أسرار الحروف ويتضح ذلك في قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثَرِّبُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ¹⁰¹ .

- يعرض في القسم الأول وصول الماء الذي يستغرق هذه الفترات، ويبين في هذه المراحل: فالرياح تتور، فتثير السحب في السماء- كما يشاء الله- فيتراكم المطر من السماء، فيستبشر به من ينزل عليهم بعد أن كانوا يائسين ¹⁰² .

وانظر كيف يعرض القسم الثاني بعد وصول الماء:

قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ نَزِيلًا فَنُخِطَ بِهِ رَزَقًا مَخْلُوفًا لَوْنُهُ ثُمَّ يَهَيَّجُ فَزَرْنَةً مَصْفًى ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ ¹⁰³ .

- هكذا في تراخ ب "ثم" وفي تمهل وبطء، فالماء ينزل فلا يختلط بالأرض، ولا بنبات الأرض، إنما يسلك ينابيع، ثم يخرج به زرعاً... ثم يهيج فتراه مصفراً وفي الوقت مهلة لتراه، ثم ﴿يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ ﴿يَجْعَلُهُ﴾ وهناك ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أو ﴿يَكُونُ حُطَامًا﴾ كأنما يصبح

بنفسه، أو يكون بلا مصير ولا فاعل، وهنا جعله ﴿يَجْعَلُهُ﴾ ثم بقي على هذه الهيئة، وهناك ﴿نَذَرُوهُ الرِّيحَ﴾ فلا يبقى له أثر.¹⁰⁴

إنه هنا في معرض بيان النعم الإلهية، فبطء عرضها، ولبت صورها وتلمي مشاهدتها أجدر بالموقف، ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل.¹⁰⁵

- يأتي طول بعض المشاهد مثيرا لاستغراق النفس فيما تشمل عليه وما تشير إليه، لتصل إلى الحقيقة الدينية الكبرى، حقيقة التوحيد فنذعن بعد معرفة وإدراك.

- نلاحظ استعمال "ثم" في سياق آخر من السياقات القرآنية المعجزة ونذكر بعض الآيات في عام العسرة، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٨﴾.¹⁰⁶

وجاء القول بزيادة "ثم" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما اختلف في جواب "إذا".

- فالقائلون بالأصالة على أن "ثم" هي العاطفة، إما على أن الجواب محذوف وهو المعطوف عليه، وإنما اختلف في تقديره.

- فقدره الرضى: ألهمهم الإنابة.

- وقدره النيسابوري، تاب عليهم وعلل لحذفه لتقدم ذكره.¹⁰⁷

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ متعلق بما قبله، أي ولقد تاب الله على الثلاثة... وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ﴾... مثل للعبارة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها إلا مكانا فيه قلق وجزع.... ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: "قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم".

وجواب "إذا" محذوف مدلول عليه بصدر الكلام كما قالوا، وتصادفنا هنا "ثم" في السياق الآتي ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ العطف فيه على الجواب المقدر. و"ثم" تدل على التراخي الشديد لزمن الكرب واشتداد المكاره، وصعوبة الابتلاء ترقب اليسر بعد العسر، ومواجهة الأعداء حتى جاءهم الفرج، وانداحت التوبة.¹⁰⁸

- ويؤيد الواقع معنى التراخي فقد لبث الابتلاء 50 ليلة.

- ولابن يعيش تعليل لمعنى التراخي الكائن في "ثم": لما تراخى لفظها بكثرة حروفها تراخى معناها، لأن قوة اللفظ مؤدنة بقوة المعنى¹⁰⁹.

وذكر البقاعي أن التعبير بـ "ثم" يمكن أن يكون إشارة إلى عظيم ما قاسوا من الأهوال وما ترقبوا إليه من مراتب الخوف¹¹⁰.

وقال ابن عاشور إن "ثم" هنا للمهلة والتراخي الزمني وليست للتراخي الرتبي، لأن ما بعدها ليس أرفع مما قبلها بقريضة السياق¹¹¹.

بالإضافة إلى هذه الآراء في دقة استعمال ثم، فقد ورد رأي يثير العجب والإعجاب إذ يجمع بين المتناقضين وهو دلالة ثم عن المفاجأة والتراخي في وقت واحد.

هوامش البحث:

¹ خالك الجندي، شهد الكلمات في رحاب سورة الفاتحة، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1، ص204

² الكهف: 45.

³ محمد حسين علي الضعين، الصورة الفنية في المثل القرآني، دار الرشيد للنشر 1981، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، ص241.

⁴ البقرة: 266.

⁵ فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دراسة تاريخية فنية مقارنة منشأة المعارف بالإسكندرية، ص380.

⁶ البقرة: 264

⁷ البقرة: 265.

⁸ الفتح: 29

⁹ محمد حسين علي الضعين، الصورة الفنية في المثل القرآني، ص242.

¹⁰ الشمس: 13 - 15.

¹¹ محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم، ج8، ص328 - 329.

¹² هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية، دار القاهرة، ط1، 2000، ص 557 - 558.

- ¹³ سورة ص: الآية 57
- ¹⁴ فتحي أحمد عامر بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دراسة تاريخية فنية، منشأة المعارف بالإسكندرية/ ص 307، 308.
- ¹⁵ فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 100.
- ¹⁶ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 533.
- ¹⁷ الانشقاق: 1- 6
- ¹⁸ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 537.
- ¹⁹ البقرة الآية 189.
- ²⁰ البقرة الآية 215.
- ²¹ البقرة: 217
- ²² البقرة: 219.
- ²³ البقرة: 219
- ²⁴ البقرة: 220.
- ²⁵ البقرة: 222.
- ²⁶ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة الحسيني، القاهرة، ج2، ص 114.
- ²⁷ سورة الزمر: 71.
- ²⁸ سورة الزمر: 73.
- ²⁹ الزمخشري، الكشاف عن الحقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار المعرفة، بيروت، ص 147.
- ³⁰ تفسير ابن عباس، ص 392.
- ³¹ عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن الكريم، ص 110
- ³² سورة البقرة: 30
- ³³ سورة البقرة: 29.
- ³⁴ فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 304.

³⁵ فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، 305.

³⁶ البقرة: 34.

³⁷ فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص306.

³⁸ البقرة: 40

³⁹ البقرة: 47

⁴⁰ البقرة: 49

⁴¹ البقرة: 50

⁴² البقرة: 51

⁴³ البقرة: 53

⁴⁴ البقرة: 54

⁴⁵ البقرة: 55

⁴⁶ البقرة: 58

⁴⁷ البقرة: 60

⁴⁸ البقرة: 61

⁴⁹ البقرة: 63

⁵⁰ البقرة: 67

⁵¹ البقرة: 72

⁵² البقرة: 83

⁵³ البقرة: 84

⁵⁴ البقرة: 93

⁵⁵ فتحي أحمد عامر بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 307

⁵⁶ عبد القادر حسين، البلاغة القيمة لآيات القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنشر (جزء عم) القاهرة 1998، ص20.

⁵⁷ النازعات: 13 - 14.

⁵⁸ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ص 72.

- ⁵⁹ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ص 73.
- ⁶⁰ الانشقاق، 1 - 8.
- ⁶¹ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج 2، 647.
- ⁶² هيفاء عثمان عباس فدا، زادة الحروف بين التأييد والمنع، ص 535.
- ⁶³ هيفاء عثمان عباس فدا، زادة الحروف بين التأييد والمنع، ص 537 - 538.
- ⁶⁴ نفس المرجع، ص 538.
- ⁶⁵ التكوير: 1 - 14.
- ⁶⁶ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ج 30، ص 140 - 141.
- ⁶⁷ سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 6، الأجزاء: 30/25 / ص 37 - 38.
- ⁶⁸ ق: 15 - 16.
- ⁶⁹ الناس: 5.
- ⁷⁰ الأعراف: 20.
- ⁷¹ طه: 120.
- ⁷² هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 363 - 365.
- ⁷³ ص: الآية 30 - 33.
- ⁷⁴ المائدة: الآية 6.
- ⁷⁵ هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 370.
- ⁷⁶ المرجع نفسه، ص 371 - 372.
- ⁷⁷ العلق: الآية 1.
- ⁷⁸ الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 30، ص 436.
- ⁷⁹ هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين التأييد والمنع، ص 387.
- ⁸⁰ القرة: الآية 195.
- ⁸¹ هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين التأييد والمنع، ص 401.
- ⁸² الممتحنة: الآية 1.

- ⁸³ النحل: الآية 15.
- ⁸⁴ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأكيد والمنع، ص 404.
- ⁸⁵ البقرة: الآية 137.
- ⁸⁶ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأكيد والمنع، ص 434 - 436.
- ⁸⁷ البقرة: الآية 194.
- ⁸⁸ يونس: الآية 26.
- ⁸⁹ يونس: الآية 27.
- ⁹⁰ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 427.
- ⁹¹ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 631.
- ⁹² آل عمران: الآية 159.
- ⁹³ يوسف: الآية 96.
- ⁹⁴ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأكيد والمنع، ص 350.
- ⁹⁵ العنكبوت: الآية 33.
- ⁹⁶ العنكبوت: الآية 31.
- ⁹⁷ الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي بيروت، ص 62.
- ⁹⁸ القصص: الآية 18 - 19.
- ⁹⁹ عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 310.
- ¹⁰⁰ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت 1995، ج 1، ص 135.
- ¹⁰¹ الروم: الآية 48.
- ¹⁰² فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 381.
- ¹⁰³ الزمر: الآية 21.
- ¹⁰⁴ فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 381.
- ¹⁰⁵ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت 1989، ص 111 - 121.
- ¹⁰⁶ التوبة: الآية 117 - 118.

¹⁰⁷ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأكيد و المنع، ص 737.

¹⁰⁸ هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 741 - 749.

¹⁰⁹ ابن يعيش، شرح المفصل، تصحيح وتحقيق: جماعة من العلماء، ج8، ص96.

¹¹⁰ البقاعي، نظم الدرر، ج9، ص40 - 41.

¹¹¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتتوير، ج11، ص53.